كان السائر بمحاذاة التل الشرقي لا يكاد يسمع رفيقه الذي يسير والتل الغربي ، فقد كانت الأصوات تغيب وتختفي في مداخن البلدة التي تفصلهما . أما في الليل فقد كان سكان تلك البلدة يسمعون أولئك الفلاحين الذين يملأون الجو غناء وصفيراً . وقد اتخذ الناس هـذين التلين طريقاً للوصول إلى البلدة . ففي ذات مساء قبل أن يربدّ لون الشفق ركب رجل نعليـه وأخذ يتدحرج من ذلك التل الشرقي إلى البلدة وقد حمل في يده حقيبة صغيرة ومظلة ، ولـكنه لم يكد يمضي في طريقه حتى سمع صوتاً يقول : « مرحى « دون » ! أهو أنت ؟ » ثم وقف الشاب الأنيق المنرف بعربته وقال : « هيا اصعد حتى تصل إلى دارك »

فالتفت الرجل إلى مصدر الصوت فحيا صاحبه مبتسما وقال : « أشكرك يا سـيد بارنت » ، ثم ركب معه

كان بارنت أكثر غنى وأنعم عيشاً من صاحبه « دون » المحـامي الناشئ ، إذ كان أبوه من كبار تجار الصوف فاستطاع أن يجمع ثروة طائلة أصاب الابن بعضها بجانب ثقافة عالية وخلق سمح كريم . ثم أخذ الصديقان يتحادثان فقال « دون » :

— كيف حال مسز بارنت ؟

— بخير

— لقد فاتني أن أهنئك على نجاحك في انتخاب المجالس البلدية الأخير حتى أن زوجي كانت عازمة على تهنئة مسز بارنت

— يسرنا أن تراكما أنا وزوجي في أي وقت تشاءان

— ولـكن خبرني يا سيد بارنت لم تفكر في بناء بيت جديد وبيتك الذي أنت فيه الآن فسيح جميل ، فصمت بارنت قليلاً ثم قال : حسن ؛ إنا نريد أن نعيش خارج البلدة ، ثم إن بيتي الآن قد قدم

ثم أخذت العربة تنهب بهما الأرض حتى وصلا أخيراً إلى البلدة فوجدا الشوارع لا تزال تفيض بالناس والمصابيح تلقي بأنوارها على واجهات الحوانيت ، فلما أتيا المنزل أسرعت الزوجة والأطفال إلى الباب يستقبلون رب البيت بعـد غياب النهار كله

فلما رأى بارنت هـذا صاح مبتهجاً : « إنك لا شك سـعيد يا « دون » بهذه الزوجة وهؤلاء الأطفال ، كم أود أن يكون لي بيت كهذا » .

فأجابه دون مبتسما : « حسن . نعم إنا نعيش هنا عيشة هادئة مطمئنة » . فقال بارنت وهو يحاول إخفاء الشعور بالمرارة والألم : « إن بيتي

الذى أقيم فيه صالح لى كما تقول ، فقد بناه جدى منذ عهد بعيد ونشأ فيه والدى وقد ولدت فيه أنا وقضيت فيه سنى شبابى ولكنى أشعر الآن بالحاجة إلى منزل جديد »

— لماذا ؟

— سعياً وراء الهدوء ، إنى أطلب السعادة فلا أجدها

ثم هم «دون» بالدخول فتعثر فى المظلة والمحفظة فزلت قدمه وهوى على ركبتيه ، فأسرعت اليه زوجه ، وقد تجاهلت وجود بارنت وأعانته على الوقوف ثم قبلته قائلة : أرجو ألا يكون قد أصابك شىء يا عزيزى » . أما الأطفال فقد أحاطوا بوالدهم وهم يصيحون : « بابا ! بابا ! » فقال بارنت وهو يدير عينيه بين الزوجة والزوج : لا بأس ، ثم حياها وانصرف ، وقلبه يتلفت إلى تلك المرأة !

عاد بارنت الى منزله فلم يجد زوجه إذ علم من الخادم أنها ذهبت الى « الخياطة » . فصاح الرجل متعجباً : « أى خياطة فى مثل هذا الوقت ؟! »

— لقد تناولت غداءها وخرجت وهى تعتذر لك عن صحبتها هذا المساء

— ولكنها كانت تعلم بمجيئى الليلة

— نعم ياسيدى

— اذهبى اليها وأخبريها بأمرى

ثم جلس بارنت إلى المائدة يتناول عشاءه فى تراخ وكسل ، وسرعان ما تذكر صديقه « دون » وحياته السعيدة ثم أخذ يقارن بين الحياتين ، ثم نهض أخيراً وقد امتلأت نفسه حنقاً وداف الى الخارج ، وكانت الشوارع لا تزال تفيض بالأنوار تحييه كلما أبصر اسم أسرته على إحدى واجهات الحوانيت ، فذكرته هذه المناظر بما كان عليه والده من مجد وشهرة . ثم مضى فى طريقه حتى وصل الى منزل صاحبته « لوسى » . فلما رأته اندفع الدم الى وجهها وألقت عليه نظرة كلها دهشة واستخفاف ؛ فلما رأى بارنت منها هذا قال : « إنى أعرف أنه ليس لى عمل هنا ، ولكنى شعرت برغبة قوية الى رؤيتك والاطمئنان عليك . هل لك أن تمنحينى يدك لترى كم من مرة أمسكتها »

— إنى أفضل أن أنسى الماضى لا أن أذكره فانى لا أجد فيه ما يستحق الذكر أو يسمح لك بالمجىء الى هنا

— ولكن ليس فيه ما يؤلم . انى لا أضايقك كثيراً يا « لوسى »

— إنى لم أتشرف حقاً بزيارتك من مدة ، ولكنى لم أكن أنتظرها الآن . أرجو أن تكون مسز بارنت بخير

— نعم . نعم . أو على الأقل أظن هذا

— كيف هذا وهى زوجك ؟

وفى هذه اللحظة أيقظت كلمات ذلك الزائر الفضولى « كناريا » كان ينام فى قفصه ، فهب الطائر مذعوراً وأخذ يضرب القفص بجناحيه ، فذهبت إليه لوسى ودنت منه وتمتمت ببعض الكلمات . فسكن الطائر إليها وعاد إلى هدوئه الأول . والحقيقة أنها عمدت هذا لتريح نفسها من عناء الحديث مع ذلك الضيف

ثم استطرد الرجل قائلاً :

« إنى لم آت لأتحدث عن مسز بارنت بل أتيت لأتحدث عنك أنت وحدك ولأقف على حالك منذ ذلك المصاب العظيم » . قال هذا وهو يلتفت

إلى صورة أبيها التى كانت معلقة على الحائط

— لا بأس ؛ أشكرك

— ماذا كنت تعملين عندما جئت إلى هنا؟ أتطرزين الأزهار ؟ — وعلى ضوء الشمعة ؟

— كنت أعمل الحواشى فقط . أعمل هذا ليلاً توفيراً للوقت . فانى ملزمة بانجاز ثلاثين غطاء فى نهاية هذا الشهر

فنظر إليها بارنت وقال بصوت المشفق عليها : « حرام أن تجهدى عينيك هـذا الاجهاد — لا . إنى أفضل العمى على أن أرى هذا بعينى »

فصاحت لوسى فى وجهه : « وهل هذا هو الوقت والمكان اللذين تذكر فيهما هذه الأشياء — لقد اعتدت أن تحترمنى وتحترم نفسك . أرجو ألا تنطق بمثل هذا الكلام وألا تأتى إلىّ ثانية . فانى لا أظن أن زيارتى ذات بال عندك »

— ذات بال ؟ لقد أتيت لأرى صديقاً قديماً عزيزاً — لا لأن أذكر هذه الأشياء . ولقد أتيت لزيارة المرأة التى أحب ؛ فلا تغضبى ، فانى لا أستطيع أن أمنع هـذا . إن كثيراً من الأشياء قد دفع بى إلى هنا — فقد حدث فى هذا المساء أن قابلت صديقاً ، فلما رأيت ما ينعم فيه ذلك الصديق من حياة منزلية هانئة ، مع أن إيراده لا يصل إلى عشر إيرادى استولى علىّ شعور غريب دفعنى إلى هنا . آه إنه مصيرى الذى ساقنى إلى هذا . إنى لا أعرف كيف أفلت منى . فقد كنت المرأة التى كان يجب أن تكون زوجتى ، ولكنى تركتك تفلتين . يالى من أحمق !

فأجابته لوسى ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع : « لا تثر هذا الموضوع من جديد . إنى مخطئة أن أشاركك هذا الحديث . يجب ألا تأتى إلى هنا . إنى أخشى الفضيحة

— حقاً . ليس لى حق فى هذا ، سوف لا أعود ثانية

— إنه لمن حمق الطبيعة البشرية أن يظن الانسان أن الطريق الذى لم يسلكه هو الأصوب . فتندم الآن قبل أن تعرف إذا كنت أرضى بك زوجاً

وفى هذه اللحظة التقت عيناها بعينيه فلم تقوَ على النظر إليه وخانها صوتها ، ثم صمتا برهة ، وأخيراً استأنفت لوسى كلامها فقالت : « إنى دونك جاهاً ومالاً . لذلك لم يكن أمر زواجنا ميسوراً ، والآن أرجو أن تتركنى »

— أجل ولكنى لن أقابل فتاة أعزّ منك .

ثم مضى

وفى اليوم الثانى جاء « دون » لزيارة صديقه بارنت فلم يكد يدخل البيت حتى رأى مسز بارنت خارجة من المنزل ، فالتفت إلى صديقه وقال : « أود أن يصلح أمركما قريباً »

— إذن لقد سمعت بنبأ الانفصال الأخير ؟

فحاول « دون » أن يخفى سروره فى قلبه بأن قال وهو يتظاهر بالأسف : « لا . لم أسمع عن شىء مهم . لكن لدى بعض أخبار غامضة عن ذلك »

— قد تظن أن الأمر تافه ، ولكنى أرى فيه غير ذلك ، والآن كيف حال زوجك وأطفالك ؟

— بخير أشكرك ، فقد خرجوا اليوم كلهم للنزهة . إنك عصبى المزاج يا سيد بارنت ، وإنى لأذكر أيام التلمذة ، وكيف كنت تثور إذا مامس أحد شعورك بكلمة

— أجل إنك مصيب يا صاحبي ، وهذا راجع إلى أني أطلب دائماً الهدوء في المنزل فلا أجده ، فلو أني ظفرت به لهان عليّ كل شيء آخر

— لقد فكرت أكثر من مرة في إصلاح ما بينك وبين زوجك ، ولكني لا أدري إذا كانت هذه الفكرة تروقك ، على كل حال سأعرضها عليك ولك أن تأخذ بها أو تتركها ، والحق أن زوجي هي صاحبة الفكرة ، فقد رأت أن تذهب إلى مسز بارنت وتتفاهم معها . إني واثق من أنهما ستصلان إلى نتيجة مرضية . فان زوجي لها قدرة عجيبة على كسب بنات جنسها

— وبني جنسها أيضاً ، إنها امرأة ذكية الفؤاد عظيمة التأثير ، وإنك لحسن الحظ بها

— قد يكون هذا ، إن زوجي مستعدة للقيام بهذه الوساطة إذا وثقت أنها جديرة بمركز مسز بارنت الاجتماعي

— إني أشكرك كثيراً ، ولكني أخشى ألا تصلا إلى نتيجة ، ثم حياه وانصرف

وفي ذات يوم كانت السيدتان راكبتين قارباً صغيراً يقطع بهما عرض النهر جيئة وذهوباً . بينما كان السيد بارنت في طريقه الى منزل « لوسي »

كانت « لوسي » في حديقة المنزل تقطف بعض الأزهار عندما دنا منها بارنت ، فلم تكد تراه حتى قالت له في ابتسامة عذبة رقيقة وهي تمد يدها الى إحدى الزنابق الحمراء : « لقد ذكرتك كثيراً يا سيد بارنت منذ أن تركتك زوجك ، وها أنت هنا . . .

— نعم « لوسي »

— الى أين أنت ذاهب الآن ؟

— الى الميناء

— طبعاً . لقد بدأت طلائع الصيف وأخذ الناس يهرعون الى الشواطئ

— لوسي . أراك اليوم ضامرة العود ، شاحبة الوجه — خبريني هل يمكنني أن أساعدك . إن الجو اليوم صفو والهواء رخاء عليل

ثم مضى ، ولكنه لم يكد يذهب بعيداً حتى هبت عاصفة شديدة غيرت وجه الطبيعة ، فبدت مخيفة غاضبة ، وعندما وصل إلى الميناء تقدم إليه أحد البحارة وهو يقول : «خطب عظيم يا سيدي»

— ما هذا يا رجل ؟

— لقد ركبت اليوم سيدتان هما مسز بارنت ومسز دون أحد القوارب طلباً للنزهة ، ولكنهما لم يبتعدا عن الشاطئ كثيراً حتى هبت عاصفة شديدة أطاحت بالقارب بعيداً فانكفأ على من فيه

— أين ؟

— أسرع إلى تلك الصخرة واطلب من ذلك الصبي الواقف هناك أن يدلك على مكان الحادثة

— وهل أنقذت السيدتان ؟

— لقد أنقذوا واحدة

— مَنْ ؟

— مسز بارنت ، أما مسز دون فيخشى أن تكون قد غابت في جوف النهر ، فأسرع بارنت إلى مكان الحادث فرأى جمعاً من الناس قد تجمهروا هناك ، فنفذ وسط ذلك الجمع ، وهناك رأى امرأة ملقاة على الرمال يعلو بدنها ثوب بنفسجي وفي يديها قفاز أصفر فعرف أنها زوجه

عاد الرجل بزوجه إلى المنزل ودعا إليها بعض

الأطباء ، والغريب فى أمر هذا الرجل أنه شعر أن حبه لزوجه هو الصلة الوحيدة التى تربطه بالحياة ، ثم أسرع إلى صديقه دون فى مكتبه ، وما كاد يفضى إليه بذلك النبأ الفاجع حتى هب الرجل مذعوراً وبقى واقفاً لا يدرى ما ذا يعمل ، وفجأة أجهش بالبكاء فجذبه بارنت من يده وذهبا معاً إلى الميناء ، حيث بقيا زمناً ينتظران إخراج الجثة ، ولكن النهر كان لا يزال هائجاً فلم يعثر الغواصون عليها ، فعاد بارنت إلى منزله تاركا دون مع بقية الأصدقاء يرقبون الغريقة ، فلم يكد يخطو عتبة الدار حتى وجد الطبيب خارجا ، فقال له : « خير »

فأجابه الطبيب : « قد عملنا جهدنا ، ولكننا لم نصل إلى نتيجة ، إنى أشاطرك هذا المصاب »

فلم يقدر الرجل شعور ذلك الطبيب كثيراً ، إذ ظنه يتهكم به ، ولا سيما وأنه كان واقفاً على النزاع الأخير ، ثم أردف الطبيب قائلا : « أرجو يا سيد بارنت أن تنتهى من ذلك الأمر قريباً »

فأجابه بارنت قائلا : « دعك من هذا الآن ، وامض إلى الميناء فقد يكون الليد دون فى حاجة اليك » ، ثم دخل المنزل فرأى الخدم خارجين من غرفة زوجه ، وقد بدا عليهم الحزن واليأس ، فأسرع إلى الغرفة ووقف صامتاً برهة وهو ينظر إلى السرير ، ثم مضى إلى غرفته الخاصة وظل يقطعها فى خطى متئدة ثقيلة ، وقد شعر أن كل شىء قد مات فى هذا البيت ، فلم يعد يسمع همساً أو نفساً . فذهب إلى النافذة وأخذ يسرح نظره فى البلدة الصاخبة ، فرأى الدخان يتصاعد من إحدى المداخن البعيدة ، فأدرك أن لوسى تهيأ لعمل الشاى كعادتها . ثم عاد إلى غرفة النوم فأخذ ينظر إلى زوجه المسجاة فى صمت وذهول ؛ لقد كانت تكبره بسنوات ، ولكنها لم تخط بعد سن الشباب ، فأخذ يتفرس فيها ، فرأى قسمات وجهها أكثر فتنة وسحراً ، ورأى فمها الدقيق وشفتيها الرقيقتين قد التصقتا ، وجبينها المشرق الوضاء يموج فوقه شعر أسود جميل ، فصاح متعجباً : « إن هذا الجمال لن يموت ! ! »

ثم عاد ثانية إلى النافذة فرأى الدخان لا يزال يتصاعد من المدخنة فى بيت صديقه ، ورأى « الكنارى » لا يزال فى القفص ، فهجمت عليه الذكريات القديمة ، وأخذ يفكر فى زوجه ولوسى ونفسه

قضت الزوجة أسبوعا طريحة الفراش ، ثم فاضت روحها بين يدى زوجها ، فأسرع الزوج إلى إعداد الجثة ومواراتها التراب ، ولكنه لم يكد يهم بالخروج حتى دخل عليه خادمه بخطاب من صديقه « دون » يقول فيه :

عزيزى بارنت :

رأيت من الأفضل أن أعلمك بأنى سأتزوج من « لوسى » على رغم أنى لم أعلن هذا بين أصدقائى نظراً للحداد ، وعلى ذلك ستكون هناك حفلة خاصة ، ولكنى أود أن تشهدها وأن تصحبنا إلى الكنيسة فى الساعة العاشرة . ما ؟

أخذ بارنت يتلو هذا الخطاب مرة ومرة ، ثم وقف قليلا يفكر فى الأمر

لم يكن هذا الرجل بالواهن العزم ، الضعيف الارادة ؛ بل كان ذا قدرة عظيمة على احتمال الخطوب والصبر على المكاره ، فلم يهن له عزم أمام هذين الخطبين اللذين ألما به فى تلك اللحظة

ولم يكن أحد قد سمع بموت زوجه ، ولم يرد أن يخبر صديقه « دون » فى ساعة زواجه ، فقام باعداد كل شىء بنفسه ، ولما انتهى من ذلك أسرع إلى الكنيسة فرأى « دون » و « لوسى » ساجدين أمام الهيكل وحولها بعض الناس ، فتقدم إلى « دون » وهنأه ، ثم التفت إلى « لوسى » وهو يتوقع أن يرى فى عينيها بريق الاثم والندم ، ولكنه وجدها مأخوذة بالموقف الجديد ، فهنأها وانصرف ، فقال له « دون » :

— انتظر حتى تصحبنا إلى المنزل

فأجابه بارنت : « لا . لا . لست مستعداً لهذا . سأقف فى الخارج مع الواقفين حتى تركبا العربة الى المنزل — ثم أراقب ذلك الشعور الذى يغمرنى عندئذ . فضحك الزوجان ثم ابتسم بارنت وخرج

فلما انتهت الحفلة وركب الزوجان وانصرف المدعوون مضى بارنت فى خطى متعثرة وفكر شارد الى مدافن البلدة وهناك انحنى على قبر زوجه يرفه عن نفسه بالبكاء ثم عاد الى منزله وقد عزم على أمر عظيم

فلما استقر به المكان أرسل جملة رسائل إلى شركائه ثم دعا أحد المحامين وهو صديق قديم لوالده وطلب إليه أن يبيع له جميع أملاكه وأن يرسل اليه ثمنها

وفى اليوم التالى كان بارنت فى طريقه الى حيث تقوده قدمه

لكنه قبل أن يغادر البلدة أرسل إلى صديقه « دون » ينبئه بموت زوجه فى الساعة التى وافاه فيها خطابه الذى يعلمه فيه بزواجه من « لوسى »

* * *

إن عشرين عاماً لا تمضى دون أن تترك أثراً فى الصخر الجلمود أو المعدن الصلب ، ولكن هذه المدة وإن بدت طويلة فى عمر الانسان لا تذكر بجانب عمر الانسانية ، ولا تترك فيها شيئاً

وأخيراً بعد عشرين عاماً عاد بارنت إلى موطنه الأول الذى لا يحول عنه ولا يتحول . فرأى وجوهاً غريبة ومعالم جديدة ، ومضى يسأل عن شريكه القديم السيد « واتكنز » . فصادف ابنه فسأله عن والده فقال له الابن : « لقد مات أبى من مدة »

— آه يؤسفنى أن أسمع هذا — لقد تركت هذه البلدة من زمن بعيد

— ولكن هل الشركة قائمة للآن ؟

— أجل إنها لا تزال قائمة ، ولكن أسقط منها اسم بارنت . ذلك الاسم الخيالى الذى لا أعتقد أن صاحبه قد عاش بيننا وساهم فى هذه الشركة

— ألا يزال « أندروجون » يعمل مهندساً للشركة ؟

— أوه ! لقد مات يا سيدى

— وكيف حال قسيس كنيسة القديسة مارى مستر « مدروز » ؟

— لقد توفاه الله منذ سنوات عديدة

فصمت بارنت برهة وقال : « كيف حال مستر « دون » المحامى ألا يزال يعمل فى المحاماة »

— لا يا سيدى ، لقد مات منذ سبع سنوات

فصمت بارنت ثانية ، وشعر بقشعريرة تسرى فى بدنه ثم قال : « وهل مسز دون لا تزال على قيد الحياة ؟ » قال هذا وهو يكاد يقضم شفتيه بأسنانه

— نعم إنها لا تزال حية وتقيم فى المنزل القديم

— مع أطفالها طبعاً

— لا — ليس لها أطفال — إلا بنات زوجها « دون » من زوجه الأولى ، وقد تزوجن كلهن فهى تعيش الآن وحيدة

— وحيدة ؟

— نعم يا سيدى وحيدة

فشكره الرجل وانصرف ، ومضى إلى الفندق فتناول غداءه ثم ارتدى ملابسه وحلق ذقنه وخرج إلى بيت لوسى كما كان يفعل قبل ذلك بعشرين عاماً

فلما وصل إلى الدار وجد نوراً ضئيلاً ينبعث من إحدى الغرف ، والسكون يخيم على المنزل فدنا من الباب وقرعه فأسرع الخادم وفتحه وقال : « ما اسمك يا سيدى ؟ »

— صديق قديم

فمضى الخادم وأخبر سيدته بذلك . فقالت له : « ماذا يشبه ؟ »

فأجابها الخادم . « إنه رجل قد وخط الشيب فوديه »

فنهضت المرأة التى كانت يوماً ما الفتاة «لوسى» وقد ذبلت الوردتان اللتان كانتا على خديها وعرف الشيب طريقه إلى شعرها . ولكن عينيها لم تفقدا سحرهما وقوتهما ولم تستطع العشرون عاماً أن تذهب بكل ذلك الجمال وذلك السحر

— ألا تعرفيننى يا لوسى ؟

— لقد عرفتك منذ رأيتك — إنى لأعرف لماذا كنت أفكر دائماً فى عودتك — لقد قالوا إنك مت ، ولكن لم أصدق قولهم

— آه لقد مضى زمن طويل على لقائنا الأخير

— نعم . ماذا رأيت فى طوافك بجانب ما رأيت فى هذا المكان المنعزل . إنك تعرف أن زوجى قد مات منذ أمد بعيد وأنى أعيش وحيدة الآن اللهم إلا بعض زيارات من بنات زوجى مستر « دون »

— وقد أصبحت أنا شيخاً وحيداً

— أين قضيت هذه المدة الطويلة ؟ ولماذا اختفيت عنا فجأة ؟

— حسن يا لوسى ، لقد أقمت مدة فى أمريكا وزمناً فى استراليا . وسنوات فى الهند ، وفترة فى جنوب إفريقيا ، وهكذا فلم أمكث فى مكان واحد كما ترين

أما لماذا اختفيت فجأة فأنت تعرفين السبب . ألم تفكرى مرة ؟

— لا — لم أفكر — ولا أى واحد آخر قد فكر فى هذا

— حسن . فكرى الآن . ثم انظرى إلىّ وأخبرينى إن كنت لا تعرفين

فنظرت إليه لوسى فى ابتسامة رقيقة وقالت : « أظن أنه ليس من أجلى »

فهز الرجل رأسه وابتسم ابتسامة حزينة فقالت :

— ألأنى تزوجت « دون » ؟

— نعم ، وفى اليوم الذى أصبحت فيه حراً لأن أطلب يدك . إذ ماتت زوجى قبل ذهابك مع « دون » الى الكنيسة بعشر ساعات ، ولقد ذهبت إليكما عقب فراغى من الدفن

فألقت عليه لوسى نظرة كلها حب وعطف وقالت : « لم أفكر فى هذا ، ولكنى أعرف أنك أظهرت لى بعض الشعور الطيب مرة ؛ ثم إنى لم أتزوج إلا وأنا أعتقد أن زوجك لا تزال حية . أظنك فى حاجة الى الشاى . لقد اعتدت أن أشرب الشاى

بدلاً من العشاء منذ وفاة زوجى فهل تسمح وتتناوله معى ؟ »

فأظهر الرجل رغبته فى الشاى وسرعان ما أعد لهما . فجلسا يشربان ويتحدثان ثم أخذ بارنت يسرح بصره فى الغرفة وأخيراً قال :

— أرى تغيرا فى نظام الغرفة . ففى مكان « البيان » الآن كان يقوم بعض أوراق الحائط وبها بعض البطاقات والرسائل ، وفى ذلك الركن قرأت ذلك الخطاب الذى أرسله إلى دون منذ عشرين عاماً يعلمنى فيه بزواجه منك . فتركت المنزل ولم أعد اليه إلا الآن

— آه لقد فهمت كل شىء

ثم أوقد المدفأة واستأنفا الحديث ، وأخيراً قال بارنت : « لوسى ! إن بعض الشىء أفضل من لا شىء ، فان كان الوقت قد فات فان ما بقى فيه خير من عدمه . هل تتزوجين منى الآن ؟ »

فتراجعت المرأة مندهشة . ولكنها لم تكن تجهل الموقف تماماً ثم قالت :

— ماذا ؟ إنى لا أتزوجك ولو وهبتنى هذه الدنيا كلها

— حتى بعد هذا ؟

— لو أنى كنت أفكر فى الزواج لفضلتك على سواك ولكنى لا أفكر فيه الآن ولا بعد الآن

— ولكن ألا تغيرين من رأيك هذا ؟

— إنك لا تدرى ماذا تقول . إنى لا أستطيع أن أقول إنه كلام مضحك لأنى أراك تتكلم جاداً ولا أستطيع أن أصف الجد بالمزاح

— أجل إنى جاد . فقد فكرت فى هذا منذ شهرين وأنا فى مدينة « الرأس » لكنى أجد منك إغفاء وصداً . إنى أتكلم جادا

— وإنى أعارض فى أية فكرة فى الزواج

— حسن فلأنصرف ، ما دام الأمر كذلك .

ثم نهض يتأهب للخروج ، فأعانته على لبس معطفه وودعته حتى الباب

فقال لها : أسعدت مساء . أرجو ألا أكون قد أسأت إليك

— لا ، لا ، بل إنى أرجو منك هذا

فابتسم قليلاً وقال : « سأقلب أوجه الرأى وأرى فيما بعد . أسعدت مساء »

ثم راقبته حتى اختفى فى الطريق فعادت الى غرفتها وأوصدت الباب دونها ثم استلقت على فراشها وأخذت تستعيد صور ما حدث منذ لحظة . وكيف تلقى صاحبها ذلك الرفض فى ثبات وهدوء كأنه كان يعتقد أنه لا يستحق إلا هذا . لقد كان رجلاً فى هذا الموقف . بل كان أكثر من رجل . ثم نهضت الى المرآة وأخذت تتطلع فيها فرأت أنها لا تزال تحتفظ بكثير من جمالها القديم . ثم بدا لها رأى جديد

أخذت ترقب عودته يوماً بعد يوم ولكن كبرياءه أبت عليه أن يعود إليها . وقد أخبرها أنه يقيم بالفندق . فلما طال الانتظار ذهبت اليه تسأل عنه فقيل لها إنه غادر المدينة فى الصباح ولم يحتفظ بغرفته

— ألم يترك عنوانه ؟

— لا

فعادت الى منزلها ساهمة مهمومة موطنة العزم على الانتظار

فانتظرته الأيام والسنين ولكنه لم يعد

نظمى خليل